

سيمائية الشخصيات في القصة المغربية

- قصص زهرة زيراوي نموذجاً -

نور الدين محقق

على سبيل تقديم:

الكتابة هي فعل محبة، فعل تقدير و تجاوب و انجذاب. الكتابة هي مرآة سحرية مزدوجة بين الكاتب و القارئ. كل منهما يرى فيها وجه الآخر الذي لن يكون في نهاية المطاف سوى وجهه هو بشكل من الأشكال. فالأنا هي الآخر كما يقول آرثر رامبو. و أن تقرأ كتابات مبدعة متميزة بالتنوع و الغنى هي محبة مضاعفة لأنها تجمع بين فعل القراءة و فعل الكتابة معا. القراءة هنا بقدر ما تلجأ إلى المجال السيميائي لتأخذ منه بعض أدوات اشتغال بقدر ما تفتح الذات القارئة للذة القراءة بتعبير رولان بارت. تلك اللذة المنبثقة من النصوص التي نجحها و نسعى لإعادة كتابتها من جديد عن طريق الولوج إلى عوالمها تفكيكا و إعادة بناء.

من هنا و وفق هذا التصور المنهجي المنفتح طبعا. سألج إلى المجموعة القصصية المسماة "الذي كان..!"⁽¹⁾ للكاتبة المغربية زهرة زيراوي لأرى ما يمكن لي أن أقوله بخصوص الشخصيات القصصية المتواجدة في عوالمها. وسأختار تبعا لذلك فقط قصة واحدة ووحيدة من هذه المجموعة المتكونة من إحدى عشرة قصة. وبالطبع ستكون هي القصة الأولى لا لأنها تحتل هذه الرتبة فقط وإنما لأنها بالإضافة إلى ذلك تحمل عنوان المجموعة ذاتها "الذي كان..!".

- سيميائية الشخصيات القصصية :

تعتبر السيميائيات الحديثة خصوصا مع فيليب هامون أن الشخصية التخيلية روائية كانت أو قصصية أو مسرحية أو غير ذلك هي في العمق علامة سيميائية وأن النص الذي توجد فيه هو الذي يقوم بعملية بنائها كما يقوم القارئ

بفعل ذات الأمر ليمنح لهذه العلامة معنى معيناً. وتبعاً لاختلاف العلامات السيميائية ما بين التي تحيل على الواقع أو تلك التي تحيل على محفل ملفوظاتي أو التي تحيل على علامة منفصلة عن نفس الملفوظ، فإن فيليب هامون قد توقف عند ثلاثة أنماط من هذه الشخصيات/العلامات هي فئة الشخصيات المرجعية و فئة الشخصيات الإشارية و فئة الشخصية الاستذكارية (2). ونظراً لأهمية هذا التقسيم السيميائي لأنماط الشخصيات فإننا سنتبنى وجهة نظره و هو نبحث عن هذه الأنواع الثلاثة في قصة الكاتبة المغربية زهرة زيراوي " الذي كان..!".

يبدو من الوهلة الأولى أن الشخصية الرئيسة في هذه القصة هي من صنف الشخصيات الإشارية فهي بمعنى ما دليل حضور الكاتبة ذاتها. شخصية ناطقة باسمها و إن بشكل و رقي بتعبير رولان بارت. شخصية تشير كل العلامات المبتوثة في النص أنها تحمل رؤية الكاتبة إلى العالم الموجود والمحيط بها. فهي شخصية نسائية تحيا في عالم متحول وهي تبحث فيه عن مكانها الذي تريد الوصول إليه دون جدوى. الشخصية القصصية تتكلم في هذه القصة عن طريق لعبة سردية محكمة الصنع و عبر تعددية الضمائر السردية. ضمير المتكلم المعبر عن المناجاة و الذي بقدر ما يفصح عن الأنا الساردة بقدر ما يخفيها كما يذهب إلى ذلك رولان بارت. و ضمير الغائب الذي يقدم الوقائع في حياد تخيلي مفترض، و ضمير المخاطب المعبر عن التعاقد على المحاوراة والمواجهة تبعاً للسياقات المتحكمة في العملية السردية. هكذا تقدم لنا القصة لحظات من حياة امرأة.. لحظات رحيلها إلى مدينة تطوان. هذا الرحيل الذي يبدو خارجياً من خلال السرد الأولي لكنه سرعان ما يتحول إلى سرد داخلي عميق. هكذا نجد الشخصية الرئيسة في هذه القصة تعلن ما يلي: "ها أنذا أرحل إليك يا تطوان، مقنعة وبغير حقيقيتي" (ص9). ثم نجد الساردة الخفية تقول فيما بعد ما يلي: " على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وفي هذا الفضاء الساحر و المنسجم تتوالد صورها النفسية موجزة. الليل. والوحدة. وتطوان".

هكذا تبني هذه الشخصية القصصية كعلامة سيميائية في حاجة لقارئ يجد لها معنى. معنى يتأسس انطلاقاً من الحضور لها داخل عوالم النص وانطلاقاً من علاقاتها مع باقي العلامات السيميائية الموجودة معها. إن هذه الشخصية القصصية تمتلئ من خلال لقاءاتها بشخصيات قصصية أخرى يمكن الوقوف عند واحدة منها قد تمت الإشارة إليها بوضوح هي شخصية أحمد. يقول أحمد وهو يقدم نفسه لبطله القصة ما يلي: "اسمي أحمد. تخصص علوم لسانيات. السلك الثالث أستاذ بثانوية..." (ص 10). أما جواب بطله القصة فيأتي على الشكل التالي "وأنا أيضاً نفس الحقل" (ص 11). هنا إضافة شيء جديد هو أن بطله القصة هي أيضاً أستاذة. هنا يفتح السرد على مجالات جديدة. لكنه وهو يفتح على شخصية قصصية جديدة سرعان ما تعيده البطله ذاتها إلى بؤرة السرد الداخلي المنغلق على الذات بدل الانفتاح على الآخر. وهو ما يعكسه هذا المقطع السردى المسرود بضمير الغائب: "تستوي على الكرسي المطاطي. ويغفو رأسها بين كفيها. تهدأ اللحظات. ويتساقط الزمن طرماً دافئاً كأقطار ربيعها الأول. فتجدد حمها للون الأزرق. تجدد عشقها للبحر والسماء. وتتمنى لو كانت كل الأرض في حجم هذه الصور المرتخية على سفوح جفونها" (ص 11).

إنّ ما يجعل من هذه الشخصية القصصية شخصية تنطوي ضمن الشخصيات الإشارية هو هذه الرؤية الواضحة للعالم المحيط بها والتي نحس من خلالها بعملية انتقاد لهذا الواقع. وهو ما يجعل منها حاملة لصوت الساردة الخفية التي هي بشكل من الأشكال تعبر عن وجهة نظر الكاتبة ذاتها. طبعاً يبقى مدلول هذه الشخصية القصصية محكوماً كما يقول فيليب هامون بكل السياق الذي تتواجد فيه. وهو ما يجعلها تغتنى كلما تعمق القارئ في فهم هذا السياق و قام بتفكيك بنياته. وهي دعوة للقارئ الفطن ليتابع الحفر في هذا الطريق الذي سرنا فيه حتى تكتمل الرؤية بالنسبة إليه ليس فقط بخصوص هذه الشخصية القصصية فحسب بل بكل عوالم القصة ذاتها.

أما بخصوص الشخصيات المرجعية التي قد تكون شخصيات تاريخية أو شخصيات أسطورية أو شخصيات مجازية فإنها تحضر في هذه القصة انطلاقاً من شخصية الحلاج. هذا الصوفي الكبير باعتبارها شخصية مرجعية تاريخية. الحلاج هنا يحضر في مناجاة قوية بين بطلة الرواية وبين المدينة. تطوان. يصبح الحلاج هنا رمزا للخلاص ونورا بهيا يضيئ الطريق. طريق السالكين إليه. تقول البطلة وهي تخاطب تطوان ما يلي : " أنت يا عبته الخلاص في وطن يدحرجني إليك. كرة من بقايا المرق، شدي أزري بحق كل أولياء الله الصالحين الذين قادتهم سفن الانعتاق إليك. ما أروعك ساجدة و مفارقة لهذا اليم !!.. كأنك الحلاج تحول أرضا !" (ص 10).

تحضر أيضا في هذه القصة شخصية مرجعية أخرى. شخصية أسطورية هاته المرة هي شخصية بجماليون. ذلك المثل الرائع الذي صنع تمثال امرأة وهام به. ورجا الآلهة في جبل الأولب، كما تقول الأسطورة. أن تبعث فيها الروح. وحين فعلت تزوج المثل فرحا بهذه المرأة التمثال. لكنها خانتها. الأسطورة هنا فعل رمزي مضاعف. وهو حين أتى. في هذه القصة. في شكل شخصية أسطورية مرجعية هي شخصية بجماليون منح للقصة كثيفا دلاليا قويا. ذلك أن هذا النوع من الشخصيات. كما يقول فيليب هامون يحيل على معنى ممتلئ وثابت حددته ثقافة معينة.

فيما يتعلق بالشخصيات الاستذكارية يمكن تحديدها في شخصية أحمد باعتبارها شخصية قصصية ذات وظيفة تنظيمية و ترابطية بالأساس. ربطت ما كانت تريد البطلة الوصول إليه وبين ما عاشته في السابق. لا ننسى أن هذه الشخصية القصصية، شخصية أحمد، ربطت بين عمل البطلة و بين ما تسعى إليها.

على سبيل الختام

إن هذه القصة و هي تقدم لنا أنماطا مختلفة من الشخصيات القصصية وتسعى لعملية تقديمها في لغة شفافة تتميز بالشاعرية والانفلات من اللغة السردية التقليدية تبني في المقابل عالما قصصيا مختلفا يتميز بالغنى والتنوع ويمنح للقارئ لذة الاستكشاف و متعة المشاركة في عملية صنعه وإعادة تشكيله من جديد. كما أن هذه

القصة وهي تقدم هذه الأنماط من الشخصيات القصصية المتميزة حرصت على تطوير رؤاها وفسح المجال أمامها و لم تحصرها في رؤية ضيقة. إن هذه القصة بهذا الفعل قد سمحت للتعدد اللغوي أن ينبثق و للأصوات السردية أن تظهر. وبالتالي فقد منحت الحياة لعوالم هذه القصة وجعلتها جديرة بالقراءة. تلك القراءة التي كما أسلفنا في التقديم ما هي سوى فعل محبة.

أما باقي قصص المجموعة القصصية "الذي كان..!" الأخرى فأترك لكم المجال لقراءتها و صدقوني إنها قصص رائعة.

- 1- زهرة زيراوي: "الذي كان..!". (مجموعة قصصية). الطبعة الثانية. دار نشر المعرفة. الدار البيضاء 2000.
- 2- فيليب هامون : "سيمولوجية الشخصيات الروائية". ترجمة سعيد بنكراد. دار الكلام الرباط 1990.

صدر حديثنا

